الإنسانيَّة العُليا[١]

من أوصافِ النَّبيِّ ﷺ : أنَّه كان متواصِلَ الأحزان ، دائمَ الفكرة ، ليست له راحة ، طويلَ السَّكْت ، لا يتكلَّم في غير حاجةٍ ، ليس بالجافي ، ولا المَهين ، يُعظِّم النِّعمةَ ؛ وإن دقَّت ، لا يذمُّ منها شيئاً ، ولا تُغضبه الدُّنيا ، ولا ما كان لها ، فإذا تُعُدِّيَ الحقُّ ؛ لم يقم لغضبه شيءٌ حتَّى ينتصرَ له ، ولا يغضبُ لنفسه ، ولا ينتصرُ لها ؛ وكان خافِضَ الطَّرف ، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السَّماء ، من رآه بَديهةً هَابَه ، ومن خالَطَه أحبَّه ، لا يَحسِبُ جليسُه أنَّ أحداً أكرمُ عليه منه ، ولا يَطْوي عن أحدٍ من النَّاس بِشْرَه ، قد وَسِع النَّاسَ بَسْطُهُ ، وخُلُقُه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحقِّ سواءً ؛ يحسِّنُ الحسَنَ ، ويقوِّيه ، ويقبِّح القبيح ، ويُوهِيه ، معتدلُ الأمر غير مختلِفٍ ؛ وكان أشدَّ النَّاس حياءً ، لا يثبِّتُ بصرَه في وجه أحدٍ ، له نورٌ يعلوه كأنَّ الشَّمس تَجري في وجهه ، لا يُؤَيِّسُ راجيَه ، ولا يخيِّبُ عافيَه ، ومن سأله حاجةً لم يردَّهُ إلا بها ، أو بمَيْسُورٍ من القول ؛ أجودُ النَّاس بالخير[٢] .

* * *

صلَّى اللهُ وسلَّم على صاحب هذه الصِّفات ؛ الَّتي لا يجدُ الكمالُ الإنسانيُّ مذهباً عنها ، ولا عن شيءٍ منها ، ولا يجدُ النَّقصُ البشريُّ مَسَاغاً إليها ، ولا إلى شيءٍ منها ؛ ففيها المعنى التَّامُّ للإنسانيَّة ، كما أنَّ فيها المعنى التَّامَّ للحقِّ ، ومن اجتماع هذين يكونُ فيها المعنى التامُّ للإيمان .

هي صفاتُ إنسانِها العظيم ، وقد اجتمعتْ له ؛ لتأخذَ عنه الحياةُ إنسانيَّتَها العالية ؛ فهي بذلك من برهانات نبوَّته ، ورسالته .

---

(١) انظر صفحة (٢٤١) من : حياة الرافعي .

(٢) جمعنا هذه الأوصاف من رواياتٍ مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد . (ع) .
قلت : انظر هذه الأوصاف في : الشفا ؛ للقاضي عياض (٢٠٣ وما بعدها) والشمائل ؛ للترمذي (٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤) وشرح السنة ؛ للبغوي (٣٧٠٥ و٣٧٠٦) ومجمع الزوائد ؛ للهيثمي (٨/ ٢٧٣ ـ ٢٧٨) ونسيم الرياض ؛ للخفاجي (٢/ ١٦٧) .

ولو جمعتَ كلَّ أوصافه ﷺ ، ونَظَمْتَها بعضَها إلى بعضٍ ، واعتبرتَها بأسرارها العلميَّة ؛ لرأيتَ منها كَوْناً معنوياً دقيقاً قائماً بهذا الإنسانِ الأعظم ، كما يقومُ هذا الكونُ بِسُنَنِه وأصولِ الحكمةِ فيه ، ولأيقنتَ أنَّ هذا النَّبيَّ الكريمَ إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسيٌّ حيٌّ أَلَّفته الحكمةُ الإلهيَّة بعلْمٍ من علمِها ، وقوةٍ من قوَّتها ؛ لتتخرَّجَ به الأمَّةُ الَّتي تُبدعُ العالمَ إبداعاً جديداً ، وتُنْشِئَه النَّشأة المحفوظةَ له في أطوار كماله .

ولن ترى في الإنسانيَّة أسمى من اجتماع هذه الصِّفات بعضِها إلى بعض ، وإني لأكادُ كلَّما تأمَّلتها أحسِبُ هذا السُّموَّ قضاءً وقدراً بإنسانٍ على الإنسانيَّة كلِّها . وهي دليلٌ على : أنَّه الإنسانُ الَّذي خُلِقَ للدُّنيا لا لنفسه ؛ فهو لا ينمو بما يكون له على النَّاس من الحقِّ ، ولكن بما يكونُ للنَّاس عليه من الواجبات ، كأنَّما هو حقيقةٌ كونيَّةٌ تعيشُ عيشَها ، فما تكونُ في الوجود إلا لتقرِّرَ وجودَها هي ، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها ، فهو ﷺ إنسانٌ غُرِسَ في التاريخ غرساً ؛ ليكونَ حدّاً لزمنٍ وأوَّلاً لزمن بعده ، وما كانت حياتُه تلك إلا طريقةَ غَرْسِه ، وهو أبداً قائمٌ في مكانه الاجتماعي ؛ إذْ كانَ الزَّمنُ كلَّما تقدَّم زاد في إثباته ، وقد أصبح في الدُّنيا كأنَّه جهةٌ من الجهات ، لا إنسانٌ من النَّاس ، فلن يتغيَّرَ ، أو يُمْحَى إلا إذا تغيَّر ، أو مُحي المشرقُ ، والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصِّفات وما فاضَتْ به كُتبُ الشَّمائل في أمثالها ، لا نقرؤها أوصافاً ، ولا حِلْية ، بل نراها صفحةً إلهيَّةً مصَنَّفَةً أبدعَ تصنيف ، وأدقَّه ، ومن وراء تأليفِها تفسيرٌ طويلٌ لا يتَهدَّى الفكرُ البشريُّ لأحسنَ منه ، ولا أصحَّ ، ولا أكمل ، فقد اجتمعت تلك الصِّفات في إنسانها اجتماعَ الأجزاء في المسألة الرياضيَّة : لا ينبغي أن تزيدَ ، أو تنقُص ؛ إذ كان في مجموعها ما وُجِدَ له مجموعُها .

ويكاد الارتباطُ بين أجزاء المسألة يكونُ هو بعينه صورةً للارتباط بين أجزاء تلك الصِّفات الشَّريفة ؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها موضوعٌ وضعاً لا يتمُّ الكلُّ إلا به ، حتَّى لا موضعَ فيها لقلَّةٍ ، أو كثرةٍ ؛ وهذا معنى قوله ﷺ : « أدَّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي »[1] ، وأنتَ إذا دَقَّقتَ في هذا الحديث ؛ أدركتَ من مَعْنَاتِه : أنَّ هناك طبيعةً

(١) انظره في : المقاصد الحسنة (٤٥) وكشف الخفاء (١٦٤) والفوائد المجموعة ؛ =

أخلاقيةً مفردةً تَجري على قانونِها الذي وضعه الله لها ، وأحكمها به .

وأعجبُ ما يُدهِشنا من مجموع صفاته ﷺ : أنَّ فيها دليلاً بيِّناً على أنَّه مخلوقٌ خلقةً متميِّزةً بنفسها ، كخلقة القلب الإنساني : نظامُه حياتهُ ، وحياتُه نظامُه ، وكأنَّما اعترَتْه حالةٌ نفسيَّةٌ كالَّتي تعترَي القلبَ في استشعار الخطَر ، فتُخرجُه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاء الجسم بمدَدٍ لا ينفَدُ من القوَّة والصَّبْر ، يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافها كأنَّها حياةٌ كانت مخبوءةً ، وظهرت بغتةً ؛ وفي هذه الحالة تتَّجه غرائزُ النَّفس كلُّها إلى جهةٍ واحدةٍ كأنَّها مقدَّرةٌ بميزانٍ ، مضبوطةٌ بقياسٍ ، فتَرجعُ على تناقُضها ، واختلافِها مُتَعاونةً يُؤَازِرُ بعضُها بعضاً ، وكان قانونُها الطَّبيعيُّ أن تَتَجاذَب ، وتتساقَطَ وتفسِّرَ الواحدةُ منها عملَ الأخرى ، فيجيء بها الشَّيء وضدُّه معاً : كالصِّدق والكذب ، والطَّمع والقناعة ، والشَّهوات الثَّائرة والخمودِ السَّاكنِ ، إلى آخرِ ما تعدُّ من هذه الغرائز ؛ ولكنَّها في استشعار الخطر تكون كالأشباه ، لا كالأضداد ، فيشدُّ بعضُها بعضاً ، ويتمِّم النَّقِيضُ منها نقيضَه ، وتَجري كلُّها في قانونٍ واحدٍ : هو الدِّفاعُ بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النَّازعَ منها ؛ وإنَّه لمستقرٌّ في أشدَّ مِنَ القيد ، وكأنَّ فيه غيرَ طبيعته .

وهل يُنْبئك مجموعُ صفاتِه ﷺ إلا أنَّه يعيشُ معيشةَ القلب إذا اختلف ما حولَه ، وفجأتْه بغَتَاتُ[1] الوجود ، فَتَجَاوَزَ أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكونَ حافظاً للحياة في منبعها ؟

وتلك الحالةُ ـ كما مرَّ بك ـ تجعلُ وجودَ الإنسان هو وجودُ إرادته وعقله ، لا وجودُ شهواته وغرائزه ؛ وكذلك عاش نبيُّنا ﷺ ؛ فهو مدَّةَ حياته في وجود إرادته لا غيرها ، حتَّى ليس عليه سبيلٌ لغَميزةٍ ، أو لائمةٍ ، كأنه خُلُقٌ تَشُدُّه نيَّةٌ مستيقِظةٌ ، قد نبَّهها ما ينبِّه النَّفسَ من الغَرَر ، والخطَر . ولعلَّ هذا الشُّعورَ في نفسِه ﷺ هو التَّفسيرُ لقوله : « نيَّةُ المؤمن خيرٌ من عمله »[2] . إلى أحاديثَ كثيرةٍ ممَّا يجري في معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها : **أنَّ نيَّةَ المؤمن لا تنطوي إلا على الخير**

= للشوكاني (٣٢٧) وضعيف الجامع الصغير (٢٤٩) .

(١) « بغتات » : جمع بغتة ، وهي : الفجأة .

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٥٥) والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٣) .

الكامل ، فهو ـ ما دامت نيتُه على صَلاحِها ، وسِرُّه على إخلاصه ـ لا يَعُدُّ اليسيرَ يسيراً ، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً ؛ فالأصلُ القائمُ في تلك النِّيَّة المؤمنِة ألا يبدأ الشَّرُّ ؛ كي لا يوجدَ ، وألا ينتهيَ الخيرُ ؛ كي لا يفْنَى ؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخير ، والكمال أبداً ، في حين أنَّ عملَه بطبيعتِه الإنسانيَّة يتناولُ الخيرَ ، والشرَّ جميعاً ، ثُمَّ لا يكونُ إلا عملاً إنسانياً على نقصٍ ، واضطرابٍ ، والتواء .

وقد لا يستطيع المؤمنُ أن يأتيَ الخيرَ في بعض أحواله ، ولكنَّه يستطيع دائماً أن يَنْويَه ، ويرغَبَ فيه ، ويَعْزِمَ عليه ؛ ليحقِّقَ ضميرَه في كلِّ ما يَهُمُّ به ؛ ويَحصرَ أفكارَه في قانون نيَّته المؤمنة . وهذا هو الأساسُ في علم الأخلاق ، ولا أساسَ من دونه .

والنيَّةُ من بعدُ هي حارسُ العمل ؛ فكلُّ إنسانٍ يستطيع أن يُذْعِنَ ، وأن يأبى ، ومن ثَمَّ تكونُ هذه النِّيَّةُ ردّاً ، ومدافعة من ناحيةٍ ، واستِجابةً ، ومُطاوَعةً من النَّاحية الأخرى ؛ فهي على الحقيقة متى صلُحَتْ كانت استقلالاً تامّاً للإرادة ، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الإرادة على حالٍ واحدةٍ ، هي التي ينتظم بها قانونُ المبدأ السَّامي .

ثُمَّ إنَّه لا ضابطَ لصحَّة العمل واستقامتِه إلا النِّيَّةُ الصَّحيحةُ المستقيمة ؛ فالتزويرُ ، والتلبيسُ كلاهما سهلٌ ميسورٌ في الأعمال ، ولكنَّهما مستحيلان في النِّيَّة إذا خَلُصَتْ .

وهي كذلك ضابطٌ للفضائلِ تُوجِّه القلوبَ على اختلافها وتَفاوُتِها اتجاهاً واحداً لا يختلف ؛ فيكونُ طَريقُ ما بينِ الإنسان والإنسان ـ من ناحية الطَّريق ـ ما بينِ الإنسانِ وبينِ الله .

وأشواقُ الرُّوح بطبيعتها لا تنتهي ، فيعارضُها الجسمُ بجعل حاجاتِه غيرَ منتهيةٍ ؛ يحاول أن يَطْمِسَ بهذه على تلك ، وأن يغلِّبَ الحيوانيَّة على الرُّوحانيَّة ، فإذا كانت النِّيَّةُ مستيقظةً ؛ كفَّتْه ، وأماتت أكثر نزَعاته ، ووضعتْ لكلِّ حاجةٍ حدّاً ونهايةً ؛ وبذلك ترجع النِّيَّةُ إلى أن تكونَ قوةً في النفس ، يخرجُ بها الإنسان عن كثيرٍ مما يَحُدُّهُ من جسمه ؛ ليخرجَ بذلك عن كثيرٍ مما يحدُّه من معاني الأرض . . .

وهي بعدَ هذا كلِّه تحملُ الإنسانَ أن ينظرَ إلى واجبه كأنَّه رقيبٌ حيٌّ في قلبه ، لا يُرائيه ، ولا يُجامِلُه ، ولا يُخدَعُ من تأويلٍ ، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ، و لاتزيينٍ ،

ولا يُسكِتُه ما تُسَوِّلُ[1] النَّفس ، ولا يزالُ دائماً يقول للإنسان في قلبه : **إنَّ الخطأ أكبرَ الخطأ أن تنظِّمَ الحياةَ من حولك ، وتتركَ الفَوْضَى في قلبك .**

وجملةُ القول في معاني النِّيَّة : أنَّها قوةٌ تجعلُ باطنَ الجسم مُتَساوقاً مع ظاهره ، فتتعاونُ الغرائزُ المختلفةُ في النفس تعاوُناً سهلاً طبيعيّاً مطَّرداً ، كما تتعاونُ أعضاء الجسم على اختلافها في اطِّرادٍ ، وسهولةٍ ، وطبيعة .

* * *

وكلُّ صفات النَّبيِّ ﷺ ـ ممَّا ذكرناه ، وما لم نذكره ـ متى اعتُبِرتْ بذلك الأصل ؛ الذي بيَّنَّاه ؛ انتظمها جميعاً ، فجاء بعضُها تماماً على بعض في نَسَقٍ رياضيٍّ عجيبٍ ، وظهرت حكمةُ كلٍّ منها واضحةً مكشوفةً ، ورأيتها في مجموعها تَصفُ لك عُمراً هندسيّاً دقيقاً ، قد بلغ الغايةَ من الكمال ، والرَّوعة ، والدِّقةِ ، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً ، بل كلُّه أجزاؤه ، وأجزاؤه كلُّه ؛ كالوضع الهندسيِّ : إمَّا أن يكونَ بِكُلِّه ، وإمَّا ألا تكونَ فيه الهندسةُ كلُّها .

وليس مجموعُ تلك الصِّفات في معناه إلا صنعةَ الإنسان صنعةً جديدةً تُخرجُه موجوداً من ذات نفسه ، وتكْسِر القالَبَ الأرضيَّ ؛ الَّذي صُبَّ فيه ، وتُفرغُه في مثل قالَب الكَوْن ، فإذا هو غيرُ هذا الإنسان الضَّيِّق المنحصر في جسمه ، ودَواعي جسمه ، فلا تُخضِعُه المادَّة ، ولا يُؤتى من سوء نظره لنفسه ، ولا تَغُرُّه الدُّنيا ، ولا يُمسكه الزَّمان ؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبَد بأهوائه ، لا الحُرِّ فيها ، والخاضع بنفسه ، لا المستقلِّ بها ، والمقبور في إنسانيَّته ، لا الحيّ فوقَ إنسانيَّته ؛ ومثلُ هذا المستعبَد الخاضع المقبور لا وجودَ له إلا في حكْم حواسِّه ، فعملُه ما يعيش به ، لا ما يعيشُ من أجله ؛ ويتَّصل بكلِّ شيءٍ اتصالاً مبتوراً ينتهي في هوىً من أهواء الحيوان الذي فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكونَ في الإنسان الاجتماعيِّ حيوانٌ ، تقابلُه الحكمةُ في الحيوان الأليف بإنسانٍ ، وحكمهما واحدٌ ، ومنطقُهما لا يختلف . فلو أنَّك سألتَ حيوانَ الأعصاب على صاحِبه الإنسان ؛ لقال لك : هو غَلَّتي ، ومَزْرعتي . ولو سألتَ كلباً عن حبِّه صاحبَه ، ومبلغ هذا الحبِّ عن نفسه ؛ لما زاد في جوابه

(١) « تسوّل » : تُزيِّن ، وتُسَهِّل ، وتُهوِّن .

على أنَّه يحبُّه حبَّ اللُّقمة ، والعظْمة .

ومتى كان الإنسانُ في حكم حواسِّه لم تَعُدِ الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعيَّة المحدودة ، وانقلبتْ كما هي في وهْمِه بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربةٍ ، فلا يشعرُ المرء بائتلاف الوجود ، وتَعاونه ، ولكن باختلافه ، وتناقُضه ، فمن ثَمَّ لا تكونُ أسبابُ اللَّذةِ إلا من أسباب الألم ، ويدخلُ في كلِّ حُبٍّ بغضٌ ، وفي كلِّ رغبةٍ طمعٌ ، وفي كلِّ خيرٍ شرٌّ ، وفي كلِّ صريحٍ خبيءٌ ، وهلمَّ جرّاً ؛ إذ لا بدَّ من هذا كلِّه متى غَلَبَ الفاني على الباقي ، ولا بد من كلِّ هذا في تمثيل رواية الحواسِّ الخادعةِ ؛ التي أساسُها التغيُّر والتَّقلُّب ، حتَّى لكأنَّ النَّفسَ إنَّما تعيشُ بها في ظاهرِ من الحياة ، لا في الحياة نفسها .

وهذا الخِداعُ جاعِلٌ كلَّ شيءٍ من أشياء النَّفس لا يبدأ إلا لينتهي ، ثم لا ينتهي إلا ليبدأ ؛ فما تزالُ هذه النَّفسُ طامعةً فيما لا تناله ، ولا يزال من ذلك مصدَرٌ لآلامها الحسيَّة ؛ ثُمَّ إذا هي نالت منَالتَها ؛ سَئِمَتْ ، فلا يزال من ذلك مصدرٌ آخرُ لآلامها المعنويَّة . ولن يجيء الصَّحيحُ من غير الصَّحيح ؛ فالكون كلُّه ليس إلا كَذِباً في النَّفس الكاذبةِ بحواسِّها .

ولذا كان أخصُّ أوصافه ﷺ راجعاً إلى خروجه من سلطان نفسه ، فلا يغضبُ لها ، ولا يُطْلِقها في الدُّنيا فيما تذمُّه ، أو تمدحهُ ، ولا يحبُّ فيها ، ولا يُبغِضُ من أجلها ، ولا يُهاوِنُها ، ولا يَستلينُ لها في مأكلٍ ولا ملبسٍ ، ولا يأخذها إلا من ناحية الإيمان بالله ، والإيمان بالإنسانيَّة ؛ فأفراحُها أحزانُها ، وآمالها أشواقها ، وأملاكها أعمالها ، وحسابُها في طبيعتها ، وحوادثُها من العقل ، لا من الحواس ، وعظمَتُها إثباتُ ذاتِها في غيرها ، لا إثباتُ غيرها في ذاتها ؛ وغايتُها في الباقي ، لا الزائل ، وفي الخالد ، لا الفاني . وما دام الحاضرُ متحركاً ؛ فهو طارىءٌ عابرٌ ، أوْشَكُ أمورِ الدُّنيا زوالاً ، والعملُ له على مقداره في قلَّةِ لُبْثِه ، وهَوانِ أمره ، والاهتمامُ أبداً بما وراءَه ، لا به .

فأوَّلُ النَّفسِ النِّيَّةُ العاملةُ لآخرتها ، وآخرُ النَّفس ما تؤدِّي إليه أعمالُ هذه النِّيَّة ، فليس في إنسانِ الدُّنيا إلا إنسانُ العالم الآخر ؛ وبهذا يُقدَّر صمتُه ، وكلامُه ، وحركتُه ، وسكونه ، وما يأتي وما يَدَعُ ، وما يُحبُّ وما يكره ؛ إذ كلُّ شيءٍ منه على ذلك الاعتبار إنَّما هو صورةُ الحقيقةِ العاملة فيه .

وجماعُ الأمر ألا يكونَ مستقبلُ الإنسان علامةَ استهزاءٍ بجانب ماضيه ، ولا علامةَ استفهامٍ ، ولا علامةَ إنكار .

* * *

وتدلُّ صفاتُ النَّبي ﷺ باجتماعها ، وتَسَاوُقها على حقيقة عظمى لم ينتبه إليها أحد ، وهي أنَّ جميعَ خصائصه النَّفسية مُرْهَفَةٌ ، متيقظةٌ ، وهذا ممَّا يَنْدُر وقوعُه ، وإمكانه ؛ فإنَّ الرَّجلَ من النَّاس لَيَكونُ حيّاً بالحياة ، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسه قد طاحَ بها الموت ، أو هي مريضةٌ ، وذلك أوَّلُ الموت ؛ أو غافلةٌ ، وذلك شِبْه الموت ؛ أمَّا الحيُّ العظيمُ ؛ فهو الذي يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأمَّا الحيُّ الأعظم فهو الذي يحيا بجميع خصائصها ، تملؤه الحياةُ ، فيملأ الحياة ، ويتمدَّدُ السِّرُّ فيه ؛ ليريه حقائقَ الأشياء ، ويَهْدِيَه ، ويدلَّه ، فيكون بنفسه رؤيةً للنَّاس ، وهدايةً ، ودَلالة ؛ ومثلُ هذا يعظُم ، ثُمَّ يعظم ؛ حتَّى ليُرَى الفرقُ بينه وبين غيره كالفرق بين نور لَبِسَ اللَّحم ، والدَّم ، وبين ترابٍ لَبِس الدَّمَ واللَّحم .

وذلك لا يكاد يتَّفق إلا في مراتبَ ، أعلاها الامتيازُ في النُّبوَّة ، ثُمَّ تدنو إلى النُّبوَّة ؛ ثُمَّ تنزلُ إلى الامتياز في الحكمة ؛ ثم تهبطُ إلى عبقرية الشِّعر . فأكبر الشُّعراء قاطبةً كالنَّبيِّ في معناه إلا أنَّه نبيٌّ صغيرٌ ، وإلا أنَّه في حُدود قلبه .

وهذه القوى الثَّلاثُ هي التي أبدعتها الحكمة الإلهيَّة ؛ لتحويل الحياة والسُّموِّ بها ؛ فالشَّاعرُ يستوحي الجمالَ ؛ إذا تألَّه الجمالُ في قلبه ، والحكيمُ يستوحي الحقيقة ؛ إذا تألَّهت في نفسِه ، والنَّبيُّ يستوحي الألوهيَّةَ نفسَها .

* * *

« كان ﷺ متواصلَ الأحزان »[١] ولكنَّها أحزانُ النُّبوَّة تكسو الحياةَ فرحَ النَّفس الكبيرة ؛ وهو فرحٌ كلُّه حزنٌ وتأمُّلٌ ، وفكرةٌ وخشوعٌ ، وطهْرٌ وفضيلةٌ ؛ وما فَرَحُ أعظمِ الشُّعراء بطرَب الوجود ، وجمال الموجودات إلا شيء قليلٌ مِنْ حزن النَّبيِّ .

« وكان دائمَ الفكرة ليست له راحة »[٢] إذ هو مكلَّفٌ أن يصنعَ الإنسانَ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

الجديدَ ، وينقِّحَ الآدميَّةَ فيه . وفكرةُ النَّبيِّ هي معيشتُه بنفسه مع الحقائقِ العليا ؛ إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ في النَّاس ، وهي الفردية ، واستقلالُها ، وسموُّها ؛ لأنَّها إطاقةُ النَّفس الكبيرة لوحدتها ، بخلاف الأنفس الضَّعيفة : الَّتي لا تُطيقها . فدأبُها أبداً أن تبحثَ عمَّا تَسْتَعبِدُ له ، أو تنسَى ذاتها فيه ، أو تستريحُ إليه من ذاتها . ومتى كانت النَّفس فارغةً ؛ كان تفكيرُها مضاعفةً لفراغها ، فهي تفرُّ منه إلى ما يُلهيها عنه ؛ ولكنَّ العظيمَ يعيشُ في امتلاء نفسِه ؛ وعالَمُهُ الدَّاخليُّ تُسمِّيه اللُّغة أحياناً : الفكرة ؛ وتسمِّيه أحياناً : الصَّمت .

« وكان ﷺ طويل السَّكْت لا يتكلَّم في غير حاجة »[1] . ومن الصَّمت أنواعٌ : فنَوعٌ يكونُ طريقةً من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يُحيط به ، ونوعٌ يغشى الإنسانَ العظيم ؛ ليكونَ علامةً على رهبة السِّرِّ الَّذي في نفسه العظيمة ؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ في صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صَمْت النَّاس ، وكلامهم ؛ ونوعٌ رابعٌ هو كالفصل بين أعمالِ الجسد ، وبين الرُّوحِ في ساعة أعمالها ؛ ونوعٌ خامسٌ يكون صمتاً على دوِيٍّ تحته يشبه نوماً ساكناً على أحلامٍ جميلةٍ تتحرَّك .

* * *

على هذا النَّمَطِ يجب أن تفسَّر كلُّ أوصافه ﷺ ؛ فهي بمجموعها طابَعٌ إلهيٌّ على حياته الشَّريفة ، يُثبتُ للدُّنيا بكلِّ برهانات العلم والفلسفة : أنَّه الإنسانُ الأفضل ، وأنَّه الأقدر ، وأنَّه الأقوى .

* * *

(١) سبق تخريجه .